الباب الثاني

من الميلاد إلى البعثة

مولد الرسول ﷺ:

قبل الحديث عن ميلاد الرسول ﷺ ينبغي أن نتحدث عن النسب الشريف: والثابت من نسب الرسول هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤىٰ بن غالب بن فهربن مالك بن النظر بن كنانة بن مدركه بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وهذا هو القدر المتفق عليه: أما فوق هذا فلا يصح فيه شيء عند علماء الحديث والتاريخ والمغازىٰ والسير وينتهي نسبه إلىٰ إسماعيل أبي العرب. المستعربة[1] وقد أحاطت عناية الله تعالىٰ برسوله فلم يدخل في سلسلة نسبه الشريف اسم ضم، ولا يوجد في نسبه أي ضعف، ولو وجد لاستغله أعداؤه من المشركين وهم كثرة، ولكنهم علىٰ عداوتهم له لم يجدوا مطعنا، ولا وسيلة ينتقصون بها من عراقة نسبه، ولو وجدوا لما ترددوا في انتهاز أية فرصة سانحة. ولكنها عناية الله جعلته ينحدر من اشرف الأنساب ومن اشرف قبائل العرب، فجده عبد المطلب كان ذا شأن في قومه، ويدعىٰ شيبة الحمد لكثرة حمد الناس له، وكان مفزع قريش في النوائب، وملجأهم في الأمور، وكان ممن حرم الخمر علىٰ نفسه في الجاهلية ومما يدل علىٰ علو منزلته في قومه[2] ما كان بينه وبين أبرهة الأشرم عندما أراد هدم الكعبة حيث تجلت حكمة عبد المطلب في ذلك اليوم المشهود.

---

(1) انظر: نور اليقين محمد الخضرىٰ ص6 والسيرة الحلبية جـ1 ص 17 وخاتم النبيين لابي زهره جـ1 ص 108 والسيرة النبويه لابن هشام جـ1 ص3 ومحمد رسول الله لمحمد رضا ص 13 وفقه السيرة للبوطىٰ ص 49.

(2) السيرة الحلبية ج1ص4.

obeikandl.com

ولو تتبعنا هذه السلسلة الشريفة لوجدنا أن كل جد من جدوده ورث الفضل عن سابقه فهو كما قال ﷺ إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم.

وكانت ولادته في عام الفيل يوم الاثنين 12 من ربيع الأول وهو العام الذي حمى الله فيه بيته من أبرهة وجيشه عندما أرادوا هدمه، فأرسل عليهم الطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، وأباد الله جيش الشرك. وتقول بعض المصادر انه ولد بعد خمسين يوما من هزيمة أبرهة. وأخذه جده عبد المطلب وذهب به إلى الكعبة فقام يدعو الله ويشكره على ما أعطاه ثم أرجعه إلى أمه، والتمس له المراضع[1] وسماه محمدا، وعندما سأله الحاضرون في مجلسه مستغربين هذا الاسم وقالوا له: يا أبا الحارث ما حملك على أن تسميه محمدا، ولم تسمه باسم آبائه، وفى لفظ ليس من أسماء آبائك ولا قومك؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء وتحمده الناس في الأرض، وذلك فيما رواه ابن عباس رضي الله عنه[2].

ولنا أن نستخلص العبر من مولده عام الفيل، وفى تسميته محمدا.

أما انه ولد عام الفيل، والناس في مكة لازالوا يتحدثون في مجالسهم بتلك النعمة الجليلة المتمثلة في حماية بيت الله الحرام من هدم أبرهة وما حل بذلك الجيش من فناء وإبادة، ولم تكن لهم قدرة على مواجهة ذلك الجيش الذي يفوقهم عددا وعدة، فإن في مولده ذلك العام الذي أرخوا به لشهرته دليلا على اليمن فكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يحمى بيته الحرام من أبرهة فحماه، وأراد أن يخلصه من الشرك والوثنية فكانت ولادة الرسول الذي طهره من الشرك والوثنية.

كما أن في إهلاك أبرهة عبرة حيث دحر جيشه الذي كان على رأسه الفيل ليرهب به أهل مكة فأراد الله إذلاله فهزمه بأضعف المخلوقات بالطير، ولو شاء الله لأرسل عليه ريحا صرصرا أو أخذه بالصيحة ولكنه جلت قدرته أباد الفيل والرجال المسلحين بالطير الأبابيل والحجارة.

(1) السيرة النبوية لابن هشام جـ 1 ص 99.

(2) السيرة الحلبية جـ1 ص 78.

فقال تعالى: {الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (1) الم يجعل كيدهم في تضليل (2) وأرسل عليهم طيرا أبابيل(3) ترميهم بحجارة من سجيل (4) فجعلهم كعصف مأكول(5)} (الفيل: 1-5).

أقول في ذلك حكمة بالغة فإذا أراد الله شيئا كان وقد أحسوا أن هناك قوة عليا قادرة لا يعرفونها حمت هذا البيت المقدس.

أما الحكمة في تسميته محمدا فهو أن الله سبحانه يلهم من يشاء وإنه لا مجال للصدفة فيما يقدره الله سبحانه، ولولا الهام الله لسماه جده اسما من الأسماء الشائعة، أما هذا الاسم فهو نادر لدرجة أن بعض كتب التاريخ والسير تقول إنه لم يسم من العرب في الجاهلية بهذا الاسم إلا ثلاثة أو أربعة فقط سموا بهذا الاسم طمعا في أن يكون احدهم النبي المنتظر حيث إن أهل الكتاب كانوا على علم بذلك كما بشرت به كتبهم كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ولما الهم الله سبحانه عبد المطلب كان ما أراد الله.

وتثبت المصادر أن عام ولادته كان عاما خصبا فاض فيه الخير على أهل مكة.

ويجب أن نستفيد من هذا الإلهام الإلهي في اسم محمد أن يختار كل واحد منا أحسن الأسماء لأولاده، فهذا واجب الولد على الأب، أن يسميه اسما حسنا وأن يحسن تربيته وتأديبه. أما ما نراه هذه الأيام من تخبط في الأسماء حتى اختلطت أسماء المسلمين بالمسيحيين والأعاجم فليس من السداد ولنا في تاريخنا وتراثنا سعة تجعلنا في غنى عن أسماء بعيدة كل البعد عن تاريخ الإسلام، وأصول العروبة، فهل يليق بنا أن نقلد الغرب في أسمائهم، مهما بلغ أصحاب هذه الأسماء من الشهرة؟ لا شك أن لكل امة أسلوبا وحضارة وتراثا وجذورا تاريخية تميزها، وللأسماء دلالاتها، وينبغي ألا نغفل هذه الدلالات، فنفقد كل ما يميزنا عن غيرنا.

وفاة والده قبل مولده:

ترجح اغلب المصادر أن النبي ﷺ ولد بعد وفاة والده، حيث ذهب عبد الله في تجارة إلى الشام بعد زواجه بآمنة بقليل وآمنة بنت وهب بن عبد مناف تلتقي مع عبد الله في جده كلاب وأسرتها من اشرف الأسر في قريش.

وبعد عودته من الشام نزل بالمدينة عند أخواله من بنى النجار فبقى عندهم شهرا وهو مريض،

وسمع عبد المطلب بذلك فأرسل إليه ابنه الأكبر الحارث إلا أن الموت سبقه فلم يدرك أخاه عبد الله حيا. وقد توفي لشهرين من الحمل لابنه محمد، وله خمس وعشرون سنة على الراجح[1].

وكأن الحكمة الإلهية أرادت لهذا الزواج المبارك ألا يطول فقد تحقق الغرض منه وهو إنجاب هذا المولود الذي لم يكن أحد قبله ولا بعده فهو حقا كما يقال الدرة اليتيمة.

أقاربه ﷺ:

أولاده وأعمامه وعماته وأخوته من الرضاعة وحواضنه وزوجاته.

أخرج مسلم واحمد عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحد هما كتاب الله ﷻ وهو حبل الله الذي من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة وعترتي أهل بيته ولذلك فإنني أرى من المناسب بيان أقاربه ﷺ فهم آل البيت، ولهم في قلوب المؤمنين منزلة عظيمة وحب الرسول وآله من الإيمان».

أولاده: من خديجة: القاسم والطاهر والطيب وزينب ورقيه وأم كلثوم وفاطمة وأما إبراهيم فمن مارية التي أهداها له المقوقس.

وتوفي الذكور قبل البعثة إلا إبراهيم فتوفي بالمدينة أما بناته فقد أدركن الإسلام وهاجرن معه وتوفيت ثلاث منهن قبله، أما فاطمة فتوفيت بعده بشهور ﷺ أجمعين وكانت أم كلثوم ورقيه مخطوبتين لابني أبي لهب وطلقهما قبل الدخول بهما فتزوج عثمان بن عفان رقيه ولما توفيت تزوج أم كلثوم. وبهذا سمي ذا النورين وقال له الرسول ﷺ لو كان عندنا ثالثة لزوجناك.

أعمامه: عد المؤرخون من أعمامه اثنى عشر: الحارث وأبو طالب والزبير وضرار وحجل واسمه المغيرة وأبو لهب واسمه عبد العزى والغيداق والعباس وحمزه والمقوم وعبد الكعبة وقثم.

عماته: عاتكه وأم حكيم وبره واميمه وصفيه واروى وكان عبدا لله وأبو طالب والمقوم وعبد الكعبة والزبير وأم حكيم واروى وبره وعاتكه أشقاء وأمهم فاطمة بنت عمر بن عائذ المخزومي.

(1) محمد رسول الله: ص 21 وخاتم النبيين جـ 1 ص 135.

وكان حمزه وحجل وصفيه أشقاء وأمهم هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة. وكان العباس وضرار وقثم أشقاء وأمهم مثيله بنت جناب بن كليب وكان أبو لهب والغيداق أشقاء وأمهم لبنى بنت هاجر بن خزا عه.

وكان الحارث فردا وأمه صفيه بنت جندب بن حجير وهو اكبر أبناء عبد المطلب.

إخوته من الرضاعة: للرسول ﷺ إخوة من الرضاعة وهم: حمزه بن عبد المطلب رضع معه من ثويبه وعبد الله بن الحارث وأنيسه وجذامه والشيماء وهى التي أتى بها للنبي ﷺ في أسرى حنين فبسط لها رداءه ووهب لها أسرى قومها وكانت حاضنته أيضاً.

وأما أخواته من سليم فهن: عاتكة بنت هلال وعاتكه بنت الاوقص بن هلال وعاتكه بنت ماتح ويقال لهن العواتك وهؤلاء الإخوة الستة إخوته من جهة حليمة السعدية وكل هؤلاء الإخوة والأخوات أخوة من الرضاعة من حليمة ماعدا حمزه عمه فهو أخوه من الرضاع من ثويبه الجارية التي اعتقها أبو لهب عمه يوم بشرته بولادته.

حواضنه:

بعد أمه حضنته ثويبه الاسلميه، وحليمة السعدية، وابنتها الشيماء وأم أيمن بركة الحبشية، فلم تكد تراه يوم ميلاده سقط على الأرض ساجدا حتى وقع حبه في قلبها، ثم هي تغمره بالعطف والحنان والبر، وما كادت تصبر على فراقه في المدة التي قضاها في بادية بنى سعد عند مرضعته حليمة، ولما رجع إلى أمه ثم توفيت احتضنته بكل الحنان والشفقة. وعندما بلغ النبي ﷺ مبلغ الرجال اعتقها بعد أن كانت امة مملوكة لأبيه عبد الله، ثم تزوجت وتوفى زوجها فعادت بابنها أيمن إلى بيت النبي فعاشت وابنها في كنف الرسول ﷺ حتى البعثة، وكان الرسول يلقاها مرحبا حافظا لها الجميل وهو يقول (إنها بقية أهل بيتي) ثم زوجها الرسول ﷺ لمتبناه زيد بن حارثة الذي وهبته له خديجة رضي الله عنها فاعتقه وتبناه فكانوا يسمونه زيد بن محمد، وقد جاء أبوه وعمه في طلبه وإرجاعه إليهم[1] وهو فتى صغير في بيت النبي فقال لهم النبي ﷺ هذا ابنكم إن شئتم رجعتم به ولكنه اختار محمدا ولم يرجع مع أهله لما لقيه

(1) سيرة ابن هشام جـ 1 ص 154.

من حسن المعاملة ولان الله أراد به خيرا وكان ثمرة زواج زيد بن الحارثة وأم أيمن أسامة بن زيد اصغر قائد في الإسلام الذي أمره الرسول على غزوة مؤته الثانية بعد استشهاد والده في غزوة مؤته الأولى والتحق الرسول بالرفيق الأعلى قبل ذلك فنفذ أبو بكر رغبة الرسول ﷺ، ويكفى دليلا على حسن المعاملة أن يختار محمدا على أهله. وبلغ من تعلق أم أيمن بالرسول ﷺ انه عند التحاقه بالرفيق الأعلى دخل عليها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فوجداها تبكى فقالا لها يا أم أيمن ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله، قالت إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله، وإنما أبكى لانقطاع خبر السماء – فأبكتهما معها

زوجاته: توفى ﷺ عن تسع نسوه هن: عائشة وحفصه وزينب وأم سلمه وصفيه وأم حبيب وميمونة وسوده وجويريه رضي الله عنهن جميعا. وهن أمهات المؤمنين قال تعالى: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم} (الأحزاب: 6) فكل زوجاته أمهات المؤمنين.

إرضاعه:

كان من عادة العرب أن تتم تنشئة أبنائهم في البادية حيث يتم اختلاطهم بأهل الفصاحة، إلى جانب ما في البادية من طيب الهواء، والأخلاق الفاضلة عند أهلها كالكرم والفروسية وكان من شأن علية القوم أن يستأجروا لأبنائهم المرضعات يقمن على تنشئتهم وإرضاعهم، والعناية بهم.

وتقول المصادر إن الرسول ﷺ قد أرضعته عدد من النسوة قيل ثمانية وقيل أكثر، أولهن أمه أمنة ثم ثويبة الاسلمية جارية عمه أبي لهب التي اعتقها حين بشرته بولادته، أرضعته أياما قبل قدوم حليمة، وخوله بنت المنذر، وأم أيمن، وامرأة سعدية غير حليمة، وثلاث نسوة من العواتك. وأكثرهن إرضاعا له حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وتكني أم كبشة. وقد جاءت نسوة من بني سعد إلى مكة يلتمسن الرضعاء ومعهن حليمة السعدية، في سنة شديدة القحط فكل امرأة أخذت رضيعا إلا حليمة. وقد كانت تحدث أنها خرجت من بلادها مع زوجها الحارث بن عبد العزى؛ وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد يلتمسن الرضعاء. ولم يكن عندها وزوجها إلا ناقة مسنة هزيلة ولها صبي يبكي من الجوع هو: عبد الله بن الحارث

أخ الرسول ﷺ من الرضاع، وليس عندها من شدة الجوع والحاجة ما يغني طفلها فضلا عن غيره، ولكنها كانت ترجو تبدل الحال وعسى ان تجد من والد الرضيع ما يسد الرمق، ولكن هذا الرضيع يتيم، وما عسى أن تصنع أمه وجده: ولكنها قالت لزوجها والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنه فأذن لها زوجها قائلا عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. ولم يحمله علي أخذه إلا أنها لم تجد غيره، ولما رجعت إلى رحلها بدل الله الحال إلى الأحسن فإذا باللبن يتدفق من ثديها فيرضع محمد وأخوه ويفيض، ومن قبل كان لا يكفي طفلها وحده. وقام زوجها إلى المشارف[1].

وإذا بها حاقل ممتلئة الرضع لبنا فشربوا وفاض عن حاجتهم فباتوا بخير ليلة، وتفاءلا خيرا بهذا الرضيع المبارك. وإذا بأغنامهم تغدو وتروح وهي في منتهي الشبع حتى صار الناس يقولون لرعاة أغنامهم اذهبوا إلى حيث ترعى أغنام بنت آل ذؤيب، وإذا بهذا الخير قد خصت به هذه الأسرة من يمن وبركة الرضيع اليتيم الذي زهدت فيه المرضعات ورغبن عنه، وقد بلغ من تعلق هذه الأسرة بهذا الرضيع إنهم ألحوا علي أمه بإبقائه مع هذه العائلة التي تعلقت به وأحبته حبا لا يضاهيه حب الأسرة لأي ابن من أبنائها.

ومن العبر في هذه الحادثة أن العناية الإلهية قد أحاطت بهذا المولود، وان إرادة الله شاءت أن يكون له شأن عظيم منذ نشأته الأولى، وان على الإنسان ألا يحكم بالظواهر فربما كان الخير مخبوءا فيما يزهد الناس فيه فالغنى ليس مقياسا، فرب فقير هو عند الله خير من كثير من الأغنياء. ولا أحد يدري أين الخير، فعليه أن يفوض الأمر لله، ولا يحكم بالظواهر التي لا يكون للإنسان دخل فيها فلا يزهد في فقير لفقره، ولا يرغب في غنى لغناه، فالخير يعلمه الله ولولا أن الله الهم حليمة السعدية وأراد بها خيرا فلم تحكم ظاهر الأمر، وترفض إرضاعه ليتمه لضاع منها خير كثير.

ولكن الله سبحانه يلهم الصالحين إلى ما فيه خيرهم دائما.

(1) بضم الميم الناقه المسنة. وانظر السيرة الحلبيه جـ1 ص 84 ومحمد رسول الله ص 30. والسيرة النبويه لابن هشام جـ 1 ص 101.

الحكمة في يتمه وكفالة عمه أبي طالب:

سبقت الإشارة إلى أن والده ﷺ قد توفى قبل ميلاد ابنه، وبعد فترة إرضاعه في بادية بني سعد التي كان ﷺ يفخر بها كما قال ابن إسحاق كان ﷺ يقول لأصحابه: أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بنى سعد بن بكر[1].

تم إرجاعه إلى أهله حيث توفيت أمه وعمره ست سنوات فكفله جده عبد المطلب وكان به عطوفا غاية العطف، ولاغرو في ذلك فكما يقولون ليس أعز من الابن إلا ابن الابن سيما وان عبد المطلب كان يرى في محمد عزاء عن فقد ابنه عبدا لله في مقتبل العمر وهذا أمر بدهى في الظروف الطبيعية فما بالك إذا وضعنا في الاعتبار رؤيا عبدا لمطلب بأن هذا الابن سيكون له شأن عظيم حيث قال إنه رأى في منامه كأن سلسلة من فضه خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها، وسأل من يعبر له رؤياه فقيل له: أنه يكون مولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، واجتمعت رؤياه، ورؤيا الأم حيث رأت حين حملت به كأنما خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وقيل لها إذا وقع على الأرض فقولي: أعيذك بالواحد من شر كل حاسد[2] ولكن هذا الجد الصالح العطوف ما لبث أن توفى وعمر محمد ثماني سنوات فكفله أبو طالب عمه شقيق والده، وكان به حفيا يحيطه برعايته وتأييده، وساعده على ذلك ما كان يتمتع به ابن أخيه من أخلاق فاضلة كريمة، وبعد عن سفاسف الأمور.

وتتجلى الحكم والعبر التالية في يتمه وكفالة عمه:

قيل لجعفر بن محمد الصادق: لم اوتم النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق[3].

(1) سيرة ابن هشام جـ 1 ص 103.

(2) خاتم النبيين ج1ص139و140وسيرة ابن هشام ج1ص98.

(3) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي جـ20 ص 96.

ولعل من الحكم في يتمه ﷺ ما يلي:

أ- الذي يعاني مرارة اليتم يكون رحيما باليتامى، حيث إن المعاناة والتجربة ترهف قلبه وإحساسه ومشاعره، وتفجر فيه ينابيع الرحمة والعطف:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها.

ولذلك نجد الآية الكريمة في سورة الضحى {ألم يجدك يتيما فآوى} والآية التي بعدها بآيتين {فأما اليتيم فلا تقهر} كأنما هي تعليل لها ونتيجة مترتبة عليها على طريقة اللف والنشر المرتب، فمن ذكر يتمه ورعاية الله له لا يمكن أن يقهر يتيما أو يفرط في حق من حقوقه أو رعايته، وهي بمعنى اذكر يتمك وارحم اليتامى، ولذلك كان كما يقول فيه عمه أبو طالب: ثمال اليتامى عصمة للأرامل[1].

ب- أراد الله سبحانه وتعالى أن يرفع شأن اليتامى الذين كانوا مضطهدين في الجاهلية فجعل الرسول ﷺ منهم رفعا لشأنهم من ناحية، وتسلية لهم من ناحية أخرى، ويكفي تعزية لأي يتيم أن يقال له: حسبك أن رسول الله عاش يتيما.

ج- تكون النعمة أعظم عندما يمن الله عليه وهو يتيم عرضة للضياع، والإهمال في التربية، ولكن لا يتعرض لشيء من هذا بل يصير سويا كاملا لا نقص فيه وأسمى خلقا وتهذيبا من أي طفل رباه أبوه.

د- لابد وأن يمنح المربي بعض صفاته لمن يربيه، ومن هذه الصفات ما يكون غير حسن كما هو حال البشر ولكن الرسول ﷺ لم يتأثر بذلك؛ لأن الذي تولى رعايته وتأديبه هو الخالق العظيم، ولذلك يقول ﷺ: أدبني ربي فأحسن تأديبي.

هـ- الدليل على كمال تربيته أنه لم يشارك أترابه في ما كانوا يخوضون فيه من اللعب واللهو ونزوات الشباب وقد حماه الله حتى إنه عندما أرادا الذهاب إلى مناسبة سمع فيها ضرب الدفوف، ألقى عليه الله نوما لم يوقظه منه إلا بزوغ الشمس.

و- تتجلى حكمة الله ﷻ في أن يكون عمه أبو طالب هو الذي يكفله بعد موت جده عبد

(1) وابيض يستسقى الفحام بوجهه: : ثمال اليتامى عصمة للارامل. من قصيدة طويلة سيرة ابن هشام ج1/ 166.

المطلب، وكان عطوفا عليه: آواه وحماه من كفار قريش مع عدم إيمانه بدعوته، وهو أمر غريب أن يحمي الإنسان عقيدة لا يعتنقها ولا يؤمن بها فالاختلاف في العقيدة من أشد أنواع الاختلاف، ولكنها حكمة الله تعالى، ولو كان مؤمنا بدعوته لما كان في الأمر عجب. وربما يقول قائل إنه كان يحميه بدافع القرابة ورابطة الدم، ولكن ذلك ليس هو السبب بدليل أن أبا لهب تربطه بمحمد نفس القرابة، ولكنه كان من أشد خصومه؛ لأن الله لم يرد له أن يكون هو الذي يؤويه. وتلك حكمة الله، آواه من لم يؤمن بدعوته، ومن كان يتوقع منه معاداته لا حمايته، ولكنها قدرة الله وحكمته البالغة، وقد كان الرسول مثلا أعلى في العرفان بالجميل فقد أخذ عليا من والده أبي طالب ليخفف عنه ويروي ابن إسحاق هذه الواقعة بقوله:

كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب وما أراده به من الخير أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال الرسول ﷺ للعباس عمه وكان من أيسر بني هاشم يا عباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله: آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه، فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى لقيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلا فاصنعا ما شئتما. فاخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه، واخذ العباس جعفر فضمه إليه فلما يزل على مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تعالى نبيا فآمن به على وهو صبى وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى اسلم جعفر واستغني عنه[1].

بعده عن اللهو ومعائب الجاهلية:

أجمعت كل كتب السيرة وكتب التاريخ على أنه لم يشارك الناس في أعيادهم بأصنامهم، حتى غضب منه عمه أبو طالب ولكن الله عصمه، كما انه لم يذق طعم الخمر، ولم يلعب الميسر وقد كان ذلك سائدا منتشرا وكان يكره وأد البنات وينهى عنه وقد روى عنه، على كرم الله

(1) سيرة ابن هشام ج1ص 153وقد اسلم جعفر قبل العباس.

وجهه قوله: ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بالنبوة إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله ﷻ من فعلهما: قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصر لي غنمي حتى اسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان. قال: نعم، فلما جئت أدنى دار من مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير. فقلت ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة – فلهوت بذلك الصوت حتى غلبني النوم فنمت، فما أيقظني إلا حرا لشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك[1].

وعلى الرغم من أن ما أشار إليه ﷺ ليس قبيحا قبحا بالمعنى المتعارف عليه؛لأن المشاركة في الاحتفالات الخاصة بالأفراح وغيرها من اللهو البريء وليس عيبا يخدش المروءة ولكن كما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين فهو يعتبر ذلك من القبيح، وما دام الله قد عصمه من مثل هذه الأمور البسيطة فما بالك بغيرها.

والله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحمي عبدا سد أمامه أبواب الفساد والانحراف.

وقد شهد له بالاستقامة ألد أعدائه: النظر بن الحارث من بني عبد الدار يقول: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم فقلتم ساحر. لا والله ما هو بساحر.

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله[2].

والعبرة في سمو أخلاقه وكمالها: تهيئته لتحمل الأمر العظيم فيما بعد، ولإقامة الحجة على المكذبين فإذا جاءهم من لا يتهم بالكذب بخبر وكذبوه فليس لهم عذر. وفي قوله تعالى: {ما ظل صاحبكم وما غوى} (النجم: 2) آثر سبحانه وتعالى التعبير عنه بوصف صاحبكم للتعريض بأنهم أهل بهتان إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة إطلاعهم على أحواله وشؤونه إذ هو بينهم في بلد لا تتعذر فيه معرفتهم بكل أحواله[3].

---

(1) محمد رسول الله ص 53 ونور اليقين ص 15.

(2) نور اليقين ص 14. والبخاري جـ1 ص 6 بدء الوحي.

(3) التحرير والتنوير ج27ص92.

وقد ألزمهم الله الحجة عندما اتهموه بالجنون فقال سبحانه: {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد} (سبأ: 46) فقد أبطل ادعاء هم بأن محمدا صاحبهم عاش معهم ويعرفون صدقه، وقد كانوا يسمونه الصادق الأمين.

ونحن المسلمين في غنى عن الرجوع إلى التاريخ والسير لإثبات كمال أخلاقه وبين أيدينا الخبر اليقين كتاب الله تعالى وفيه الدليل على كمال أخلاقه وسموها في قوله تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم} (القلم: 4) وما في هذه الآية من توكيدات وما جاء في مفتتح سورة (النجم) وفى ذلك كل الكفاية:

كفاه عن مدحنا ما قال بارؤنا : : في سورة النجم أو في سورة القلم

وقول حسان بن ثابت رضي الله عنه.

وأحسن منك لم تر قط عيني : : وأجمل منك لم تلـــد النســـاء
خلقت مبرئا من كل عيب : : كأنك قد خلقت كمـــا تشـــاء[1]

سفره مع عمه إلى الشام:

من نعم الله سبحانه وتعالى على قريش أنها الفت رحلتي الشتاء والصيف احدهما إلى الشام والأخرى إلى اليمن تروح قوافلها وتغدو إلى هاتين المدينتين محملة بالبضائع في امن تام لا يتعرض لها أحد لما منحه الله من فضل البيت الحرام، وما له من منزلة عظيمة وقد ذكرها الله بهذه النعمة في سورة قريش وفى منع أبرهة من هدم الكعبة.

وكان أبو طالب قد سافر في تجارة إلى الشام وصحب معه ابن أخيه محمداً؛ ليدربه على السفر والتجارة؛ وليشعره بأنه لا يقل شانا عن أترابه حتى يعزيه عن فقد والده فلا يشعر بأنه يتيم مهمل. والتقى براهب في سفره، ويروى ابن هشام هذه الواقعة فيقول: قال ابن إسحاق ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام، فلما تهيأ إلى الرحيل واجمع المسيرصب به وتعلق به رسول الله ﷺ فرق له وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا،

(1) ديوان حسان ص10.

فخرج به معه، فلما وصل الركب بصرىٰ من ارض الشام، وبها راهب يقال له بحيرىٰ في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب. إليه يصير علمهم من كتاب، يتوارثونه كابرا عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرىٰ، وكان كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم، ولا يعرض لهم، حتىٰ كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا، لشيء رآه وهو في صومعته حيث رأىٰ الرسول ﷺ حين اقبلوا وغمامة تظلله من بين القوم.

ثم اقبلوا ونزلوا في ظل شجرة قريبا منه فنظر إلىٰ الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ استظل تحتها، فلما رأىٰ ذلك نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال: إني صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، فانا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم فقال له رجل منهم، والله يا بحيرىٰ إن لك لشأنا اليوم فما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيرا، فما شانك اليوم، فقال له بحيرىٰ صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم واصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرىٰ في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرىٰ ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنا، فتخلف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم، فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزىٰ إن كان اللؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم فلما رآه بحيرىٰ جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلىٰ أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتىٰ إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرىٰ فقال له يا غلام: أسألك بحق اللات والعزىٰ إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه – وإنما قال له بحيرىٰ ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بها – فقال له رسول الله لا تسألني باللات والعزىٰ فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما. فقال له بحيرىٰ فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء حاله في نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرىٰ من صفة ثم نظر إلىٰ ظهره فرأىٰ خاتم النبوة بين كتفيه علىٰ موضعه من صفته التي عنده، قال ابن هشام وكان مثل اثر المحجم.

فلما فرغ اقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني قال له بحيرى ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا قال فإنه ابن أخي قال: فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شان عظيم[1].

وليس في هذه القصة ما يثير الشك في صحة وقوعها لأن أهل الكتاب سيما أحبارهم ورهبانهم يعرفون النبي المرتقب باسمه وصفته كما وردت في التوراة والإنجيل. وقد اخبر القرآن الكريم بهذا في قوله تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} (البقرة: 146).

وفي أسباب نزول قوله تعالى: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقا لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} (البقرة: 89) أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء، وداو ود بن سلمة يا معشر اليهود: اتقوا الله واسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، تخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته فقال سلام بن أبي مشكم أحد بني النظير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فانزل الله الآية[2].

فكفرهم كان نتيجة بغض وتعصب عرقي لأنه من العرب وليس لأنهم لم يعرفوه ولم يطابق الوصف الذي أخبرت به كتبهم.

وفي التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب اخرج الثعلبي عن طريق السدى الصغير عن الكلبي عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام قد انزل الله علي نبيه {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} فكيف يا عبد الله هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما اعرف ابني إذا رايته مع

(1) جـ ص 110.

(2) أسباب النزول للسبوطي ص 18 على هشام تفسير وبيان للحمصي.

الصبيان، وأنا اشد معرفة بمحمد منى بابني فقال عمر: كيف ذلك؟ قال: إن رسول الله حق من الله، وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما تصنع النساء. فقال عمر: وفقك الله يابن سلام[1].

وفى هذا حجة دامغة على الكافرين منهم. ومن المعروف أن ابن سلام كان من أحبار اليهود واسلم.

إن دلائل النبوة كانت واضحة في حياة محمد ﷺ لأنه كان النبي الموعود به في التوراة والإنجيل، ولهذا قال ﷺ عند ما سأله صحابته عن نفسه: أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى عليه السلام. وكان أهل الكتاب ورهبانهم وأحبارهم يسألون عن ظهور هذا النبي حتى ظهر نوره، وكان ميلاده محفوفا بالبشارات، وكانت استقامته دليلا على حفظ الله له من كل انحراف.

رحلته إلى الشام في تجارة خديجة:

كانت خديجة بنت خويلد من اشرف نساء قريش، وكانت أرملة ولها مال وفير، وكانت تطلب ممن ترى فيهم الكفاءة أن يضاربوا بمالها وتجارتها بجزء من الربح. ولما سمعت بمحمد وأمانته عرضت عليه أن يخرج مع غلامها ميسرة في تجارة لها إلى الشام على أن يكون له نصيب من الربح فقبل محمد عرضها وخرج مع غلامها إلى الشام وعاد وقد ربح ربحا لم يسبقه أحدٌ إليه، وأخبرها غلامها عن أمانته وصدقه، وأخبرها أيضاً بما رآه من أن ظلا كان يتبعه ويحتويه وهو يسير ليقيه شدة الحر[2] فازداد إعجاب خديجة به وبأمانته.

ويؤخذ من هذه الحادثة جواز المضاربة أو القراض بمال الغير، ومن هذا أخذ الفقهاء جوازها.

كما يؤخذ منها أيضاً وجوب التحلي بالأمانة والمحافظة على مال الغير، فلا يجوز للمضارب أن يفرط، أو يخون صاحب المال.

---

(1) ص 154 الأثر 69.

(2) هذا ما تشير إليه المصادر، وليس في الأمر عجب فهو رسول الله لا يعجزه شئ ولا يستغرب إكرامه لرسوله.

زواجه ﷺ بخديجة وحكمة تعدد زوجاته:

كانت تجارة الرسول بمال السيدة خديجة، وإعجابها بأمانته تمهيدا مناسبا لزواجه بها وكانت تبلغ من العمر أربعين على ما تقول المصادر وعمره خمس وعشرون سنه. وخطبها من والدها عمه حمزه وفى بعض الروايات أبو طالب، واستمر هذا الزواج حتى وفاتها بعد البعثة وكانت أول امرأة تعتنق الإسلام رضي الله عنها وكل أولاده منها ما عدا إبراهيم وهم القاسم والطاهر والطيب[1] وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة عليهم السلام وكل الذكور توفوا قبل البعثة[2] ما عدا إبراهيم فقد توفى بالمدينة وأما بناته فقد أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ، وكلهن توفين قبله إلا فاطمة التي توفيت بعد التحاقه بالرفيق الأعلى بشهور

ومن العبر في هذا الزواج:

أولا: لا حجة لمن يدعي بأن النبي كان شديد الرغبة في النساء فتزوج بالعديد منهن، ولو كان الأمر كذلك لما تزوج من امرأة أرملة في الأربعين وهو في الخامسة والعشرين وهو ليس مغمورا لا يرضي به أحد بل انه في أوج شهرته بماله من نسب عريق وأخلاق سامية، وليس عاجزا عن دفع المهر فرضي بمن تكبره حيث أصدقها عشرين بكرة كما ذكر ابن هشام وغيره. وهو دليل علي قدرته المالية، فلم يكن مضطرا لعدم القدرة على دفع الصداق.

ثانيا: رجاحة العقل هي ما يرغب الزوج في زوجته والزوجة في زوجها، وهذا ما فعله محمد وخديجة كلاهما وقد صدقت فراسة الرسول فكانت من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام ولهذا كان التدين والاستقامة هما المعيار الصحيح في أي زواج ناجح، فاظفر بذات الدين تربت يداك.

ثالثا: كان الرسول وفيا لها بعد وفاتها فكان يكرم صديقاتها وقريباتها ويذكرها بالخير، ويدافع عنها بصدق وقوة. وهذا ما يجب أن يتصف به المسلمون.

وبمناسبة الحديث عن زواجه ﷺ فلابد من بيان الحكمة في تعدد زوجاته لدحض الفرية التي يحاول أعداء الإسلام والجهلاء ترديدها، وعلى الأخص بعض المستشرفين.

(1) في بعض المصادر أن الطيب هو: الطاهر.

(2) سيرة ابن هشام جـ 1 ص 116.

فقد تزوج رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها بامرأة أرملة وهي سودة بنت زمعة، وكانت من السابقات إلى الإسلام وتزوجت بابن عمها السكران بن عمرو وهاجرت معه الهجرة الثانية إلى الحبشة، ثم رجعت معه إلى مكة وتوفي وبقيت أرملة بعده لا سند لها، ولو رجعت إلى أهلها لعذبوها، لأنها تركت دينهم وأسلمت، وهاجرت مخافة الفتنة. فأراد ﷺ حمايتها من أهلها حتى لا يفتنوها أو يعذبوها فتزوجها إكراما لها، ولو لم يفعل لعادت إلى أهل مشركين وهي منكسرة ذليلة. فهل بعد هذه الرحمة رحمة؟

ثم تزوج بعائشة بنت أبي بكر الصديق وهي البكر الوحيدة التي تزوج بها إكراما لوالدها الذي كان أول من آمن به ورفيقه في الغار.

ولنفس السبب تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة ببدر.

ثم تزوج بزينب بنت خزيمة بن الحارث بعد استشهاد زوجها عبد الله بن جحش في أحد.

والحكمة في ذلك أن هذه المرأة كانت من فضليات النساء حتى كانوا يدعونها أم المساكين؛ لبرها بهم، وعنايتها بشأنهم فكافأها على فضلها، ولم يتركها أرملة تقاسي الهوان والعوز وهي التي كانت تعين المعوزين، وتوفيت بعد بنائه بها بشهرين. ثم تزوج بأم سلمة. واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بنى مخزوم وكانت هي وزوجها (عبد الله بن أسد ابن عمة الرسول وأخوه من الرضاعة) أول من هاجر إلى الحبشة، وكانت تحب زوجها لدرجة أن أبا بكر وعمر خطباها فلم تقبل، ولما قال لها النبي ﷺ سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيرا قالت: ومن يكون خيرا من أبي سلمة؟ ومن هنا يعلم الجميع مقدار مصاب هذه المرأة الفاضلة في زوجها، وقد رأى ﷺ أنه لا عزاء لها عنه إلا بزواجها بالرسول ﷺ، وعندما طلب منها الزواج اعتذرت لأنها مسنة وأم أيتام هم: سلمة وعمر ودرة وزينب[1].

إلا أنه قبل كفالتهم، ولو كان راغبا في الناحية الجنسية لما قبل الزواج بها على كبر سن تعترف به هي نفسها إلى جانب كفالته أولادها الأيتام، وقد كان لها رأى صائب عندما

(1) الرحيق المختوم ص 446.

أشارت على الرسول في صلح الحديبية بأن يتحلل وينحر هديه بعد أن صده المشركون عن الكعبة ففعل وتبعه أصحابه بعدما كادت تحل بهم النقمة لترددهم في التحلل قبل أن يعتمروا.

وظاهر أن الحكم عديدة في هذا الزواج: كفالة الأيتام وتعزيتها عن فقد أعز زوج، فكافأها على رجاحة العقل.

أما زواجه بزينب بنت جحش فقد كان لحكم تعلو على كل حكمة وهى إبطال ما كان يعتقده أهل الجاهلية من تحريم زوجة المتبنى وكان زوجها زيد بن ثابت ابنا بالتبني للنبي ﷺ وكانوا يدعونه زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى: {ادعوهم لآبائهم} (الأحزاب: 5).

وعندما طلقها زيد أراد الله سبحانه وتعالى إبطال هذا الاعتقاد السائد في الجاهلية فأمر الرسول ﷺ بأن يكون هو الذي يبطل هذا الاعتقاد فيتزوج زوجة متبناه في قوله تعالى: {فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون عل المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا} (الأحزاب: 37) فالله هو الذي زوجه هذه المرأة.

أما زواجه بجويرية بنت الحارث سيد بن المصطلق فقد كانت ضمن مائتين بين أطفال ونساء أسرهم المسلمون، فاعتقها الرسول ﷺ ليقتدي به المسلمون وتزوجها، فقال الصحابة هؤلاء أصهار رسول الله فأطلقوا سراحهم فدخلوا في الإسلام جميعا وكانوا عونا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم، وكان لذلك صدى طيب في نفوس العرب، فقد كان زواجا مباركا نتج عنه وجود أعوان للمسلمين وفى هذا دليل على أن الإسلام دين الحرية.

ثم تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان واسمها رملة وقد كانت عند عبيد الله بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية فتنصر هناك وثبتت هي على الإسلام[1].

ولا يستطيع أحد أن يصف الحالة النفسية القاسية التي كانت تعانيها هذه المرأة، أهلها مشركون، وزوجها ترك دينه واعتنق النصرانية وهى في دار غربة، أترجع إلى أبي سفيان أبيها فيفتنها عن دينها؟ أتضيع في الغربة؟ فأراد النبي أن يخفف عنها محنتها فتزوجها. كما لا يخفى أن لزواجه بها تأليفا لقلوب بنى أمية عسى أن يخفف خصومتهم لبنى هاشم، وعداوتهم للإسلام.

(1) سيرة ابن هشام جـ1 ص 139.

أما زواجه بصفية بنت حيى بن أخطب[1] فقد كان من قبيل ارحموا عزيز قوم ذل فقد كان أبوها سيد بنى النضير وقد قتل مع بنى قريضة، وقتل زوجها يوم خيبر، وقد أخذها دحية الكلبي فقال الصحابة يا رسول الله: إنها سيدة قومها فلا تصلح إلا لك فاعتقها وتزوجها، لأنه لم يرد لها المذلة عندما تشعر أنها عند من هو اقل منها شانا وقد حرص على أن يحررها من العبودية ﷺ ثم تزوج بميمونة بنت الحارث وهى آخر أزواجه[2]. وهى خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد سيف الله المسلول رضي الله عنهما، وزوجها للرسول عمه العباس، وهى تمت بصلة قرابة لبنى هاشم وبنى مخزوم وهى أرملة حمزه شهيد أحد رضي الله عنه وهى التي وهبت نفسها للنبي ونزلت فيها آية سورة الأحزاب فهي من خصوصياته.

وفى كل زواج حكمة خاصة كما سبق أما الحكمة العامة فهي أن زوجاته يعتبرن معلمات لنساء المسلمين ينقلن إليه أسئلتهن في الأمور النسوية التي يصعب السؤال عنها مباشرة ولو كان الغرض المتعة الجنسية لما كن كلهن أرامل مسنات أو في سن الكهولة باستثناء عائشة البكر الوحيدة. كما أن زواجه بهن كان بعد تجاوز الخمسين واقترابه من الستين وهى سن تخبو فيها حرارة الجنس، ولو كان يطلب المتعة لوجدها في الصبيات والأبكار.

وقد عشن معه شظف العيش حتى إن الله سبحانه وتعالى أمره بأن يخيرهن بين البقاء معه على ضيق العيش للفوز بالدار الآخرة وبين تسريحهن إذا رغبن الدنيا فقال تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا (28) وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن أجرا عظيما (29)} (الأحزاب: 28-29).

وفي أسباب نزول هذه الآية اخرج مسلم واحمد والنسائي عن طريق أبي الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر: لأكلمن

(1) انظر تفسير وبيان للحمصى ص 339.

(2) الزوجة بالتاء لغه رديئة والفصيح هو أن الزوج لفظ يطلق على الذكر والانثي إلا أن الفقهاء آثرو الحاق التاء في المواريث حتى لاحصل اشتباه

النبي لعله يضحك فقال عمر: يا رسول الله: لو رأيت ابنه زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذاه وقال: هن حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصه كلاهما يقول: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده؟

وأنزل الله الخيار فبدأ بعائشة فقال ﷺ: إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تتعجلي فيه حتى تستأ مري أبويك. قالت: ما هو؟ فتلا عليها {يا أيها النبي قل لأزواجك} (الأحزاب: 28) قالت عائشة: أفيك أستأمر أبوي؟ بل اختار الله ورسوله، وهكذا فعلت كل أزواجه فكافأهن الله بالا بيد لهن بأزواج غيرهن[1].

إن المسلمين لا يرون في تعدد زوجات الرسول ﷺ إلا خيرا وهو من خصوصياته كقوله تعالى {وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين} (الأحزاب: 50) [2].

أما غير المسلمين من المسيحيين وعلى الأخص المستشرقين الذين يتخذون هذا مطعنا فعليهم الرجوع إلى كتبهم ليروا كم كان الأنبياء السابقون وما عندهم من أزواج تقارب المائة عند بعضهم وما كان محمد بدعا من الرسل. وفي علاقته الحسنة بأزواجه، وعدله بينهن المثل الأعلى والقدوة التي يجب أن يقتدي بها المسلمون.

اشتراكه في إعادة بناء الكعبة:

لما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة اشترك مع قريش في إعادة بناء الكعبة وكان يحمل الحجارة كما كان عمه العباس وغيرهم من رجال قريش.

وكان ارتفاعها فوق القامة وكانت رضما أي حجارة منضده بعضها فوق بعض. وكان بناؤها قد أصابه الوهن لتعرضها لحريق ثم تعرضت لسيل جارف، وكانوا يضعون كنوزهم في بئر داخل جوف الكعبة.

---

(1) أسباب النزول للسيوطي ص 338.

(2) انظر أسباب النزول ص 343.

واعدوا لذلك مالا طيبا ليس فيه مهر بغيٍ ولا ربا حيث قال عائذ بن عمران بن مخزوم يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبا: لا يدخل فيها مهر بغيٍ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس. وجزأت بناءها فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة.

وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انظموا إليهم. وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم وكان شق الحجر لبني عبد الدار وبني أسد والحطيم لبني عديٍ بن كعب[1].

وعندما أتموا بناءها اختلفوا في وضع الحجر الأسود في مكانه حتى كادت تشب بينهم نار الحرب، واستمر الخصام بينهم أربع ليال أو خمسة حتى قال أسن رجل فيهم وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي عم خالد بن الوليد: لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه فقالوا نكل الأمر لأول داخل فكان أول داخل هو الأمين محمد ﷺ فاطمأن الجميع له لما يعهدون فيه من الأمانة والصدق وقالوا رضينابه حكما: فلما أخبروه الخبر بسط رداءه ووضع عليه الحجر وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب، وأمرهم بر فعه حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه ووضعه فيه.

وهكذا انتهت هده المشكلة التي كادت تسبب في حرب بين قبائل قريش بفضل سداد رأي النبي ﷺ الذي حقن الله به الدم أن يراق في بيت الله الحرام.

وليس غريبا أن يختصم أهل مكة في وضع الحجر فهو شرف لا يرضى أحد بأن يحرمه، ولهذا البيت مكانة عظيمة في نفوس العرب.

والعبرة في هذه الواقعة تكمن في حسن التصرف والنزاهة فادا ما أراد الحكم أن يكون حكمه مقبولا فعليه أن يتجرد من الهوى والميل لأي طرف من أطراف الخصومة.

وهذا ما تحلى به النبي ﷺ حيث لم يمل إلى تغليب قبيلة على أخري، ولم يميز نفسه عنهم بشي بل أشركهم جميعا بشكل متساو. وهذا الرأي الصائب لا يؤتيه الله إلا من أحب من عباده.

(1) سيرة ابن هشام جـ 1 ص 118 ونور اليقين ص 12

انقطاعه في الغار

لما قارب الرسول ﷺ الأربعين من العمر حبب الله إليه الخلاء، ومن المعروف أن الإنسان في خلوته يكون قادرا على التأمل والتفكير الهادي العميق الخالي من صخب الحياة وضجيج الناس.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء الليالي ذوات العدد، فيتحنث فيه وهو التعبد[1] قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقاري قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد الثانية ثم أرسلني، فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربك الأكرم(3)} (العلق: 1-3) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة واخبرها الخبر، لقد خشيت علي نفسي فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول

(1) سؤل الدكتور عبد الغني عوض الراجحي هل كان النبي ﷺ يتعبد قبل مبعثه في غار حراء؟ فأجاب:
قال تعالى: (وكذلك اوحينا إليك روحامن امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) (الشورى: 52). مقدمة سيرة ابن هشام.

الله ﷺ أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم يلبث ورقة أن توفي[1].

وبنزول الوحي علي رسول الله ﷺ بدأ عهد جديد هو البعثة، والتكليف بالرسالة الخاتمة.

والحكمة في اختلائه وانقطاعه عن الناس هي التمهيد لتلقي الحدث الجلل حتىٰ تتهيأ نفسه، وكذلك الحكمة في الرؤيا كما جاء فيما روته عائشة رضي الله عنها ، حتىٰ لا يفاجأ بأمر لم يسبقه تمهيد وذلك من رحمة الله تعالىٰ ورأفته به.

وقد بلغ من رجاحة عقل خديجة رضي الله عنها أن طمأنته وبشرته خيراً لما لمست من استقامته، وبذلك ينبغي للإنسان أن يشهد للكاملين بالكمال، وأن يكون تقديره للناس وما يخبرون به وفقا لسلوكهم وتصرفاتهم.

أما ورقة فقد انتفع بعلمه من الكتب التي يقرأ، وما كل قارئ منتفع ولكن توفيق الله جعل ورقة يصدق الرسول ﷺ فيما رأىٰ بناء علي ما أطلع عليه في كتب الرسالات السابقة، وأخبره عما سيكون من قومه، وأنه سيكون من نصرائه إذا عز النصير.

(1) البخارىٰ ج1 ص4 بدء الوحىٰ.

obeikandl.com